من الوزراء الإسلاميين

خالد بن برمك

للأستاذ محمد أحمد برانق

يدور على ألسنة الأدباء والمؤرخين كثيرا ذكرُ البرامكة، لما كان لهم من عظيم الأثر فى توجيه السياسة الإسلامية حقبة من الزمان؛ فهم الذين كانوا يقومون بتدبير شئون الدولة فى عصر يعتبره بعض المؤرخين أنضر العصور الإسلامية وأزهاها حتى قصرت يد الرشيد عن النظر فى أمور الرعية، وحتى كاد أن لايكون مطلق اليد فى شئونه الخاصة، وهم الذين أغدقوا على الشعراء أبواقِ ذلك الزمان، فبسط هؤلاء ألسنتهم بمدحهم، وأشادوابذكرهم، لما نالوا من جزيل عطاياهم، وهم الذين قربوا إليهم العلماء، فباحثوهم، وتناقشوا فى مجالسهم، وهم الذين كان يخشاهم كبار ساسة زمانهم حتى قبل أن تكون مقاليد الأمور فى أيديهم، فدبروا لهم المكايد. وسعوا عليهم عند الخلفاء، وكانوا يحاولون أن يحملوهم على مكارههم بما يلفقون لهم من زور وبهتان، ولكن الباطل ليس له يدان ولا رجلان، فكان الله ينقذهم، وإن تصرفهم فى أمر هذه الدولة دل على أن فيهم ذكاء. وفطنة، وقدرة على الاضطلاع بأعباء المضلع من الأمور.

هؤلاء القوم نكبهم الرشيد بعد أن خاف أن يزول عنه سلطانه، وخشى أن تصير الخلافة الإسلامية العربية ملكاً كسرويا قد يكون فيه بعد ذلك خطر على العقيدة الإسلامية، فقتلِ من قتل، وسجن من سجن، واستصدر أموالا

وأيم نساء، وعقد ألسنة الشعراء، حتى لايبسطوا ألسنتهم فى رثائهم، فكانت هذه النكبة من الحوادث التاريخية الكبرى التى غيرت وجه التاريخ، لأنهم لولم يعجل بهم الرشيد لكان الأمر فى المدة الباقية من أيامه وفى أيام خلفه غير ماكان، ولكانت معرفتنا، بتاريخ الدولة الاسلامية غير ماعرفنا ولذلك ترى اسم الرشيد مقرونا باسم البرامكة، واسم البرامكة مقرونا باسم الرشيد؛ وكثير من الناس يرددون أسماءهم، ولايعرفون عنها أكثر من أنها أسماء برمكية، كما لايعرفون عن نكبتهم أكثر من أن الرشيد قتل وسجن وعذب وخرب البيوت، وأخذ الأموال، وأرمل النساء، ويتم الأطفال، ولم تنفع شفاعة الشافعين، ولااسترضاعه فيهم أيام كان رضيعا،

واتصال البرمكيين بالاسلام كان قبل عهد الرشيد، ولعله نشأ فى أواخر دولة بنى أمية حيث كان خالد بن برمك يعمل فى جيش قحطبة بن شبيب، فيتقلد خراج مايفتحه الجيش من البلاد، ويتولى الغنائم، ويقسمها بين الجند، وكان يجتهد أن يكون عادلا فى توزيع الغنائم، فأرضى جميع أهل خراسان، حتى قيل: مامن أحد من أهل خراسان إلا ولخالد عليه يَدٌ ومِنَّة، لأنه قسط الخراج فأحسن فيه إلى أهله.

ولم يكن خالد مع ابن قحطبة يتولى الخراج فحسب، ولكنه كان ذا رأى مطاع لخبرته وفطنته وذكائه. حدثوا أنه كان يوما مع قحطبة بن شبيب على سطح قرية من القرى التى استولى عليها، وكانوا يتغدَّوْن، فنظر خالد فرأى أقاطيع الوحش من الظباء والبقر أقبلت نافرة، وخالطت العسكر، فلما رآها فعلت ذلك، وطبعها أن تنفر من العسكر، علم أنها لم تخالطه إلا لشىء وراءها أعظم مما دخلت فيه، فبادر إلى قحطبة أمير الجيش، وقال: يأيها الأمير، قد أتينا، وجيوش العدو قريبة منا، فَمُرْ من ينادى بالسلاح، فعجب قحطبة من فطنته وذكائه، وأمره بالنداء فى العسكر ففعل، ولم يمض إلا قليل حتى كان

ابن حنبارة وجيشه وفدوا عليهم، وكانت بينهم حرب انتهت بقتل ابن حنبارة، وأرسل قحطبة برأس إلى أبي مسلم ظنا منه أنها رأس ابن حنبارة، ولكنه لم يلبث أن تعرّف على رأس ابن حنبارة بنقش خاتمه، فلما هم أن يرسله إلى أبي مسلم بدل الرأس الأول، منعه خالد بصحة رأيه لأنه إن فعل ذلك أبطل الاول والثانى، أى أن أبا مسلم يشك فى الرأس المرسل إليه أولا وثانيا. ويعرف أن قحطبة لا يتثبت من أمره قبل أن يفعل مايفعل. ويوم ابن حنبارة هذا هو الذى وصفه خالد للمهدى بأنهم لما صافّهم القوم خفقت ألويتهم بالنصر، وقذف الله فى قلوب أعدائهم الرعب، وهبت ريح الغلبة، فلم يمض إلا قليل حتى انجلى الأمر لهم بالنصر فكان منهم لله حمد وشكر فعجب المهدى لإحسانه وإيجازه.

٭٭٭

كان لخالد شأن فى تلك الحروب، فهو نافذ البصيرة، فيه ذكاء وفطنة وكياسة، وانتهت الحروب بالقضاء على بنى أمية، واستتمام الأمر لأبى العباس السفاح، فذهب خالد إليه ليكون فى جملة من يبايعونه بالخلافة، فرأى فيه فصاحة توهم سامعه أنه من العرب. فسأله عن الرجل؟، فقال: مولاك خالد بن برمك وتحدث إليه ببعض شأنه ثم قال: وأنا الكميت بن زيد:

فما لى إلا آل أحمد شيعة ومالى إلا مذهب الحق مذهب

فأعجب به السفاح، وأقره على ماكان تحت يده من الغنائم، ثم قلده ديوان الخراج، وديوان الجند، وهو أول من جعل تدوين مايثبت فيها فى دفاتر بدل الصحف، وجعل للعمل نظاما مرسوما، يسهل به إنجاز الأعمال، وييسر الرجوع إليها

ولما رأى أبو العباس ما فيه من فطنة وذكاء، وما هو عليه من إخلاص فى العمل وكفاية له- رخصه به، وألحقه بمجلسه، وأحله محل الوزير، وكانت

له عنده منزلة خاصة ، حتى أن ريطة بنت أبى العباس رضعت من زوجة خالد وأم سلمة زوجة السفاح أرضعت أم يحي بنت خالد ، ولقدتبسط معه يوما فى الحديث فقال لم ترض يا ابن برمك حتى استعبدتنى ، فانزعج خالد من ذلك ووجم ، وقال : أنا عبد أمير المؤمنين ، فقال أبو العباس : كانت ريطة وأم يحى فى فراش واحد ، فتكشّفتا ، فرددت عليها اللحاف ، فقبل يده وشكر له . وظل خالد على منزلته تلك عند أبى العباس حتى كان يستشيره فيما جل من الأمور ، ويشكو إليه همه ، ويبثه حزنه ، ويعمل بتدبيره ، وقد كان خالد حازم الرأى ، بعيد النظر ، مخلصا للخليفة ، متفانيا فى خدمته ، وقد شكا إليه الخليفة يوما أنه يخشى نفوذ أبى مسلم الخراسانى ، فإن له فى نفوس الجند منزلة عظيمة ، يهابونه ، ويخشونه ، ويأتمرون بأمره ، وينتهون عند نهيه ، فلم تعزب الحيلة عن ذهن خالد ، ولم يعز عليه أن يشير على الخليفة برأى فيه تشكيك للجند فى أبى مسلم ، وحط لمكانته وخَضْد لشوكته ، وفلّ لِغَرْبه ، وتَوْهين لقوته ، أشار عليه أن يأمر أبا مسلم بعرض الجند ، وإسقاط من لم يكن من أهل خراسان منهم ، ففعل أبو مسلم ذلك ، من غير أن يفطن للأمر ، وجلس للعرض فى أول يوم وأسقط جندا كثيرا ليسوا من أهل خراسان ، ثم جلس فى اليوم الثانى ، وفعل مافعل فى اليوم الأول ، ثم جلس فى اليوم الثالث فدعا بالناس فلم يقم أحد ، فدعا ثانية فلم يقم أحد فدعا ثالثة فلم يقم أحد ، ثم قام إليه رجل فقال : علام تسقط الناس أيها الرجل منذ ثلاث ؟ . فأجابه أبو مسلم : أسقط من لم يكن من أهل خراسان ، قال : فابدأ بنفسك ، فإنك من أهل أصبهان وقد دخلت فى أهل خراسان .

وهنا فقط تنبه أبو مسلم ، وفطن لما أريد به ، وعلم أن هذه حيلة حيكت لتنفير الجند منه ، وقال : هذا أمر أحكم بليل ، حَسْبك من شر سماعه .

وبهذه الحيلة استطاع الخليفة أن يسيء العلاقة بين الجند وبين أبى مسلم ،

أو أن يجعلها تفتر على الأقل ، حتى لاتكون هيبة الجيوش إياه مصدر خوف وانزعاج له فى كل وقت .

***

مات أبو العباس السفاح وتولى أمر المسلمين من بعده أخوه أبو جعفر المنصور ، ولم يبق حظ خالد مع أبى جعفر مثل حظه مع السفاح ، فإن أبا جعفر عزله عن الخراج ، وصرفه عن الديوان ، وولاه فارس ، فأقام بها سنين وكان أبو أيوب يخشى على نفسه أن يزيله خالد عن مركزه ، وكان يتخوفه على مجلسه لما فيه من الفضل ، فيصرفه المنصور عن الديوان، ولذلك كان لا يألو جهدا فى السعى على خالد عند المنصور ، ويحضه على مكروهه ، ويبغضه إليه ، ويصوره له فى صورة الماكر المخادع الخائن ؛ ليضعف محله عند المنصور ، ويسقط من عينه ، فتأثر المنصور بكلام وزيره أبى أيوب ، ونكب خالدا ، وألزمه أن يدفع لبيت المال مالا كثيرا لاقبل له به ، فاعتذر خالد للمنصور ، فلم يقبل عذره ، وأبى إلا أن يدفع المال ، فقدم بعض من يؤمنون بأمانة خالد ونزاهته المساعدة إليه ، وحمل كل منهم قطعة من ماله أو جواهره إليه ، وكان ممن ساعده أم الرشيد ، لأن خالدا كان أباه رضاعا ؛ فلما علم أبو جعفر أن أصدقاء خالد يساعدونه بالمال — أعفاه من الدفع ، إذ تحقق لديه أنه لا يملك ماحكم به عليه .

ولكن أبا أيوب لم يطمئن قلبه إلى مافعل المنصور مع خالد ، وأبى إلا أن يزيد فى إيغار صدره من ناحية أبى جعفر ، فجاء بجهبذ نصرانى ، ودفع إليه مالا ، وأمره أن يعترف بأنه لخالد إذا سأله المنصور ثم دس أبو أيوب إلى المنصور من يخبر خبر مال خالد الذى عند النصرانى ، فلما عرف المنصور ذلك أحضر النصرانى وسأله عن المال ، فاعترف أنه لخالد بن برمك ، فعز على المنصور أن يكذب عليه خالد وأن يخفى عنه ماله ، ثم يساعده الناس ليسد الإتاوة

المفروضة عليه ، ثم أمر بإحضار خالد ، فلما حضر سأله عن ذلك المال،فحلف بالله أنه لم يجمع مالا قط ولا ادخره ولا يعرف ذلك النصرانى،ورجا المنصور أن يحقق ذلك الأمر ، فخلى أبو جعفر خالدا بحضرته ، وأحضر النصرانى أمامه وسأله أتعرف خالدا إن رأيته؟ ، قال : نعم يا أمير المؤمنين — أعرفه إن رأيته وكان خالد جالسا أمامه ولم يعرفه ، فالتفت أبو جعفر إلى خالد ، وقال له : الآن حصحص الحق ، قد أظهر الله براءتك ، ثم وضع أبو جعفر يده على المال وأضافه إلى بيت مال المسلمين وقال لخالد : هذا مال أصبناه بسببك ، ثم قال للنصرانى : هذا الجالس خالد ، فكيف لم تعرفه ؟ ، قال:الأمان يا أمير المؤمنين وأخبره الخبر ، فكان لا يقبل من أبى أيوب بعد ذلك شيئا فى خالد ، ولكنه لم يؤاخذ أبا أيوب على ما أوقع به لخالد لماله عنده من المنزلة الخاصة التى نذكرها عند الكلام عن أبى أيوب .

✿✿✿

وأما فى زمن المهدى ، فإنه لما وزر له أبو عبيد الله فسد ما كان بين خالد وأبى عبيد الله من التصافى ، وذلك لأمر يكاد يكون كالذى كان بينه وبين أبى أيوب وزير المنصور ، أو قريبا منه ، فإنهم يقولون : إنه كان بين أبى عبيد الله وخالد سر ، فظن أبو عبيد الله أن خالدا يحسده على مكانه من المهدى ، وعلى موضعه فى الوزارة ، وتخوفه على السر الذى بينهما وكان أسره إليه ، فلما علم بذلك خالد ركب حتى أتى باب أبى عبيد الله ، فلما رآه غلمانه أعظموا ذلك ، وتبادروا إليه يستقبلونه ، ولما علم أبو عبيدالله بمقدم خالد ، تعجب وخرج مسرعا للقائه ، فقال له خالد : بلغنى عنك أنك تخوفتنى على سر كنت أسررته إلى ، وما أتخذ ،ودتك عدة لعداوتك ، ثم حلف له أيمانا مغلظة أن لو قطع إربا إربا ماذكر ذلك تعريضا ولا تصريحا ، ولا أطلع أحدا على شىء من هذا ؛ وليس ذلك ضرعا منه إلى أبى عبيد الله ، أو رغبة فيما لديه ؛ وانصرف من

داره ؛ ثم أوفد ابنه يحيى إلى أبى عبيد الله يخبره عن لسان أبيه أن كل امرأة له طالق ، وكل مملوك له حر ، وكل ملك له صدقة — إن دخل له منزلا أو كلمه أبدا ؛ فأدى يحيى الرسالة كما أمره أبوه ، فشق ذلك على أبى عبيد الله ،وأمر يحيى أن يكون فى حاجة أبيه ، فكان يحيى يلقاه فيكرمه ، ويقضى حوائجه ، والذى حدا بيحيى إلى هذا أنه كان يرى أن أبا عبيد الله رجل مسكين من صاحبه ، وقد وقع فى نفسه شىء عليه ، فقد يرقى إليه عن يحيى كلام لا أصل له ، فيقبله ويصدقه . أما وقد أظهر له مافى نفسه منه ، فأنه يأمن سعى أحد عليه عنده ولايجرؤ أحد أن يحمله على مكروهه ، ويضع فى حضرته من شأنه ، أو ينازعه محله .

وابتدأ اتصال خالد بهارون الرشيد زمن أبيه المهدى ، فإن المهدى أرسل ابنه هرون غازيا سنة ١٦٣ هـ ومعه خالد ، ولما قلد المهدى ابنه هرون بلاد المغرب ، كان خالد يكتب له ، فتولى ذلك ودبره ، وأحسن القيام عليه .

ويذكرون من أخلاق خالد أنه كان سخيا جليلا نبيلا سريا كثير الإحسان قال الجاحظ نقلا عن ثمامة : كان أصحابنا يقولون : لم يكن يرى لجليس خالد دار إلا خالد بناها له ، ولاضيعة إلا وخالد ابتاعها له ، ولا ولد إلا وخالد ابتاع أمه إن كانت أمة ، أو أدى مهرها إن كانت حرة ؛ ولا دابة إلا وخالد حمله عليها — إما من نتاجه أو من غير نتاجه .

والذين كانوا يسترفدون الأغنياء ، ويطرقون أبوابهم للعطاء؛جرى العرف فى زمنهم على تسميتهم بالسؤال ، فأنكر خالد ذلك الاسم واستقبحه ، لأنه يشعر بالمذلة والمهانة ، وقد يكون من بين السائلين والعفاة الأعزاء الأحرار ، وأبناء النعيم ، والأشراف الذين ألح عليهم الدهر ، فعضهم بنابه عضة نفذت فى صميمهم ، فألجأتهم إلى مد الأيدى ، وإراقة ماء الوجوه ، وتحمل المهانة فى ذل السؤال ، وقد يكون منهم من هو خير ممن يقصد ، وأفضل أدبا — أنكر

خالد ذلك الاسم واستقبحه ، فأمر أن يسمى كل مستميح عطاء ، أو طالب بر ؛ بالزائر وفى ذلك يقول بشار :

حذا خالد فى جوده حذو برمك ... فجود له مستطرف وأثيل
وكان بنو الإعدام يُدْعون قبله ... بلفظ على الإعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال فى كل موطن ... وإن كان فيهم تافة وجليل
فسماهم الزوار سترا عليهمو ... فأستاره فى المجتدين سـدول

ويظهر أن المرء كلما نبه شأنه ، أو أعجب به من لم تربطهم به رابطة صداقة أو زمالة فى عمل — تفتحت عليه عيون عارفيه ، فكانوا كلهم فى الحقد عليه ، والدس له ، وحمل الغير على مكروهه ، ونار الحسد تتلظى فى قلوبهم ؛ نحس زفيرها فى أنفاسهم ، ونقرأ صفحتها السوداء فى عيونهم . وهذا نظام سائر فى الكون ، منذ خلق الله الكون . لذلك كان خالد محسودا ، ويحاول حاسدوه أن يوقعوا به ، وقد مرت نكبته زمن المنصور ، وبرأه الله منها ، ولكنها لم تلبث أن عادت ، وتكررت زمن المهدى — وذلك أن المهدى كان أنفذ خالدا إلى فارس عاملا عليها ، فاستخلف خالد ابنه يحيى ، فسقط الخراج عن أهلها ، ووضع عنهم خراج الشجر ؛ وكانوا يلزمون خراجا ثقيلا ، وأكثر خالد الصلات والجوائز والإحسان إلى كافة الناس وخاصتهم على عادته فى الإحسان ؛ وكان يفعل ذلك ابتغاء وجه الله ، أو تألفا لقلوب الناس ، باسترضائهم ؛ أو ابتغاء الشهرة ، وبعد الصيت ، وجميل الأحدوثة ، أو لأى سبب آخر ؛ وهذا لا يعنينا فى قليل ولا كثير ، ولكن الذى يعنينا أنه تصدق ، وأنه أعطى ، وأنه أسرف فى العطاء ، حتى غضب الجند منه ، وبرموا به ، وشغبوا عليه ، فاضطر إلى قتل قائد منهم ليقضى على الفتنة قبل أن تهب من مرقدها ، ولكن عمله هذا أحفظ عليه بعض المتصلين بالمهدى ، فأكثروا فيه عنده ، وأساءوا فيه القالة ، ونسبوه إلى المعصية ، فغضب المهدى عليه ، ونكبه نكبة أشد من

نكبة المنصور له ، فإن المنصور اكتفى بصرفه عن عمله ، وتغريمه جملة من المال ، ولكن المهدى صرفه عن عمله ، وألزمه مالا جليلا ، ونجمه عليه نجوما أسبوعية فكان يؤدى فى كل يوم جمعة نجما منه ، ولم يكتف بهذا ، بل ساقه إلى السجن ، ولولا أن الخيزران زوج المهدى وأم هرون شفعت فيه بالرضاع الذى بين ابنها هرون ، وبين الفضل بن يحيى بن خالد حتى رضى عنه ورد إلى منزلته — لولا ذلك لتلف فى السجن ، وقضى على أسرة البرامكة قبل أن يكون لها من الشأن فى تاريخ الإسلام مالها .

قدمنا أن خالدا خرج فى غزاة صائفة مع هرون بن المهدى ، فمات منصرفه من تلك الغزاة سنه ١٦٣ هـ ، وقيل إن ذلك كان سنة ١٦٥ هـ وبذلك سكنت أنفاس رجل كان خصيصا عند المنصور وابنه المهدى ، وولى الأعمال الجليلة ، وكان عاقلا مدبرا سيوسا ، فلم يبلغ مبلغه أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه ، وجميع خلاله ، وقد قصده الشعراء ومدحوه ، وأجزل صلتهم ، وممن مدحوه بشار ، ومن قوله يمدحه :

لعمرى لقد أجدى علىّ ابن برمك ... وما كل من كان الغنى عنده يجدى
حلبت بشعرى راحتيه فدرّتا ... سماحا كمادر السحاب مع الرعد
إذا جئته للحمد أشرق وجهه ... إليك وأعطاك الكرامة بالحمد
لم تعم فى القوم لا يستثيبها ... جزاء ، وكيل التاجر المد بالمد
مفيد ومتلاف سبيل ترائه ... إذا ماغدا أو راح كالجزر والمد
أخالد إن الحمد يبقى لأهله ... جمالا ، ولا تبقى الكنوز على الكد
فأطعم وكل من عارة مستردة ... ولا تبقها إن الغوارى للرد

محمد أحمد برانق